ميلاد

لا أعرف من أين أبدأ.. لا أحد يعلم كيف كانت البداية .. عرفنا ذلك لاحقا.. بعد أن آل كل شيء لما تراه الآن.

واصل الكهل اجترار ذكرياته:

- قبل سنوات عديدة مضت.. فتحتُ عينيّ هنا.. في هذا الوطن.. من أبوين عاشا هنا.. ماتا هنا.. دفنا هنا.. بكيتُ عليهما ذات يوم.

وقف من مكانه سار خطوات.. تبعه الفتيّ.. وقف بعد مسافة.. نظر كمن يبحث عن شيء ما.. التفت إلى الفتيّ الواقف خلفه مشيراً:

- هناك في ذاك المكان دُفنا.. ذاك شاهد قبريهما.. الآن أحسدهما لأنهما دفنا في هذا الوطن.. بت أخشى أن أموت بعيدا عن هذا المكان.

سار عائدا إلى ظل الجدار .. تبعه الفتيّ.

❖❖❖

- كان المكان واسعا شاسعاً.. يتسع للجميع.. لا حدود له ولا نهاية.. يمتد على مد البصر.. ولدتُ بعد زواج والديّ إثر قصة حب لم تطل كثيراً.. كللت بارتباطهما.. وجئتُ سريعا إلى هذا الوطن لأنهل من خيراته.

- خيراته!

- نعم خيراته.. كان فيما يحكي الأولون فضاءً فسيحًا.. خالياً قفراً من كل شيء.. اتخذ منه الأسلاف مكاناً لخلواتهم.. فهو بعيد عن العمران..

طرد ذبابة أزعجته .. استأنف حديثه:

- ذات مساء.. كان في الخلاء زوج من القطط.. يستكشفان المكان.. كانت زيارتهما الأولى للمكان.. فجأة قطع خلوتهما وسكون المكان صوتٌ أربكهما.. يزداد ضجيجه رويدا رويدا.. بحثا عن مخبأ.. اقترب الصوت المنكر.. لمحاه من مخبئهما.. كان وحشا برتقالي اللون.. يتصاعد من مؤخرته دخان كثيف.. توقف في وسط الخلاء.. زمجر طويلاً.. نزل من جوفه إنسي.. اختفت ملامح وجهه خلف منديل أبيض.. تمعن في المكان طويلاً.. عاد ليصعد إلى الوحش البرتقالي.. زمجر من جديد في غضب.. تصاعدت سحب دخان خانقة من مؤخرته.. سار قليلا في الخلاء اختار موقعا ارتضاه.. ألقى ما في جوفه.. غادر بعد أن أعاد زمجرته من جديد.. اختفى الضجيج.. عاد السكون ليحل في المكان من جديد .. خرج العاشقان من مخبئهما بعد أن اطمئنا إلى مغادرة البرتقالي الغاضب .. سارا بحذر نحو ما خلفه الوحش وراءه ..تفحصاه .. كانت مفاجأة صاعقة لهما لم يتوقعاها أبدا .

❖ ❖ ❖

-ما الذي اكتشفاه ؟

لم يطل انتظار القط الفتيّ كثيرا للحصول على إجابة سؤاله .

- كانت ثروة .
- ثروة!
- نعم .. كانت بقايا ذلك الوحش المزمجر ثروة بالنسبة لأمثالنا.
- ما الذي تركه خلفه؟
- إنها ما يسمونه قمامة .
- قمامة!
- نعم .. كانت لأمثالنا ثروة وجدنا فيها كل ما لذ وطاب من الأكل.. صحيح أن الأمر لا يخلو من روائح كريهة.. لكن أمة القطط لا تأبه لمثل هذا الأمر.. ربما أمثالك من القطط المنزلية لم تعِ ولن تعيَ أهمية تلك الثروة في تلك الأيام.
- ربما ... ماذا بعد أن غادر الوحش البرتقالي؟
- لم يعد المكان كما كان.. في اليوم التالي أعلن القطّان ارتباطهما واختيارهما هذا المكان وطنا أبديا لهما.. ليس هذا كل ما حدث في اليوم التالي.
- ماذا حدث أيضا؟

- عاد الوحش من جديد وفي نفس التوقيت.. ليفرغ ما في جوفه من جديد فوق ما تركه في أمسه.

- ازدادت الثروة إذا ...هئ هئ هئ.

لم يخفَ على القط الفتيّ عدم استجابة الكهل لدعابته .. استمر في سرده:

- بعد أيام وصلت أنباء تلك الثروة إلى أزواج آخرين من القطط.. سارعت للتأكد من صحة النبأ.. بقاؤهما كان دليلا واضحا على تصديقها للنبأ.

زحف ظل الجدار ليلتصق بجداره.. اتخذا مكاناً جديداً أكثر برودة وأوفر ظلا.. واصل الكهل روايته:

- بدا المكان أكثر ألفة .. ولد الجيل الأول من أبناء القادمين الأوائل.. كانوا أكثر نضارة.. وأصلب عودا من جيل الآباء.

- هل كنت ضمن هؤلاء القادمين الجدد؟

- كلا.. أنا كنت من أبناء الجيل الثاني في الوطن الجديد الذي ولد فيه آبائي.

- أوه .. حسنا .. أكمل.

- جاء زوار آخرون للمكان من غير أمم القطط.. راق لهم المكان أيضا فقرروا البقاء.

- أمم أخرى؟

- نعم وصلت طلائع من الجرابيع والقنادش.. يقال أن الوحش البرتقالي هو من لفظها في المكان.

- هذا يعني أن الوحش البرتقالي استمر في زياراته اليومية.

- نعم .. مع الأيام زاد عددها أيضا.. واختلف وقت وصولها .. تقول أمي إنه بعد أن كثرت زيارات الوحوش البرتقالية اللون برائحتها الكريهة وصل معها ذات يوم مجموعة من الجراء الصغيرة.

- جراء صغيرة.

- نعم كانوا الجيل الأول من أمة الكلاب التي تستوطن المكان

- الكلاب.. تلك الأمة البائسة .

- في البداية سارت الحياة عادية.. فالخير كثير والعدد قليل.. لكن الأمر لم يدم طويلاً..

❖❖❖

- تكاثرت الكلاب بسرعة أيضاً.. كذلك القنادش والجرذان والجرابيع.. وجدوا في المكان مرتعاً خصباً.. صار المكان مزدحماً في فترة وجيزة.

- لابد من حدوث مواجهات في مثل هذه الظروف.

- نعم.. هذا ما حدث.. صارت كل فئة تحاول الاستحواذ على المكان وتسيطر عليه.

- هذا ما يحدث دائما في المجتمعات المختلطة.
- وصل الأمر لحد التقاتل.
- هذا فظيع.
- في هذا الوقت بالذات ولد والداي..

أوقفه أزيز ذبابة عن مواصلة سرده .. أكمل بعد أن ابتعدت:

- طالت فترة الصراع .. ترعرعا في هذه الأجواء.. ما إن شبّا عن الطوق حتى بدأ العنف يدبّ في الوطن كله.

عاودت الذبابة هجومها من جديدة .. حاول اصطيادها بقبضته .. نجحت في تفاديها .. واصل قائلا :

- المشكلة ليست في الصراع بين الأمم المختلفة فقط .
- ماذا أيضا ؟ .
- كان هناك صراعات أخرى بين الأمم نفسها .
- لم أفهم .
- بعد أن زادت أعداد القاطنين للمكان .. نشأت صراعات خارجية بين كل فئة وأخرى .. وصراعات داخلية وسط كل فئة .
- ما الغاية من هذه الصراعات ؟
- كان الأمر بحاجة لتنظيم .
- تنظيم ماذا ؟.
- تنظيم الحياة في المكان ليتسع للجميع .

- فهمت .

- هذا ما أجج الصراع أيضا بين أمة القطط .. أما باقي الأمم فقد وصلت لاختيار زعاماتها .

- ما الذي جعل القطط تتأخر في اختيار الزعامات بينما نجح غيرهم؟.

- إنها القوة .. خضعت بسرعة لسلطان القوة .

عادت الذبابة لتحوم حوله .. لم تكن وحدها هذه المرة .. اصطحبت معها رفيقة أكثر **إزعاجا** وإلحاحا .. واجههما بقبضته وببعض الشتائم المناسبة .. غادرت بعد **أن أعانه** الفتى ببعض الشتائم والمطاردة ..

- كانت هناك صراعات داخلية بين القطط .. وكذلك الحال بين الكلاب .. القنادش والجرابيع كانت أكثر هدوًا وأكثر تنظيما وانقيادا ..

- ما السبب برأيك ؟

- لا أدري .. ربما هي طبيعة القطط الرافضة للانقياد .. أو ربما لتزايد عددنا الكبير .

- ماذا حصل بعدها ؟.

- لم تبال القطط بالأمر في البداية .. استمرت على حالة الفوضى ..

عادت الذبابة وحدها من جديد لمضايقته .. حاول إهمالها .. لكنها كانت من الإلحاح والزنين ما نرفزه .. أفقدته أعصابه هذه المرة فصرخ وحاول اصطيادها .. فشل ككل مرة .. ابتعدت عنه .. استرجع هدوءه بصعوبة .. قال :

- قاد البعض حملة لتوعية القطط بأهمية اختيار زعامات .. كان الأمر صعبا جدا عليهم لعدم استجابة القطط .. فقد استمرأت العيش في الحرية المطلقة .. كان الأمر أشبه بالمستحيل .

- المستحيل !.. ألهذه الدرجة ؟

- نعم .. في هذا الوقت تعارف أبواي .. كانا من الداعين لهذا الطرح المهم .. كان شعارهم .. "وحدة القطط فيها حياتها".

- شعار جميل .

- ليس بالشعارات وحدها تعيش الأمم .

- صدقت .. ماذا حدث بعد ذلك ؟ .. وماذا فعل أسلافنا ؟

- تحتاج الأمم إلى جانب الشعارات إلى من يقودها لحمل هذا الشعار..

استمرأت أمتنا الفوضى وعشقتها .. كانوا يخشون من الانتظام تحت زعيم أو زعامة أو قانون .

- لكن هذا من متطلبات الحياة .

- لم تستوعب القطط ذلك ..

- ماذا عن والديك ؟

- عملوا بهمة .. حصدوا نجاحا ضئيلا .. انضم إليهم بعض القطط الشابة .. لكن لا تخلو الحياة من منغصات .

- ما الذي جرى ؟ .